أيكولوجية المدينة الفلسطينية

تتناول الدراسة الايكولوجية للمراكز العمرانية اربعة عناصر، هي: السكان، والمؤسسات، والبيئة، والتكنولوجيا. واضاف الخبيران المشهوران في الشؤون السكانية، اوتيس دونكان وفيليب هاوزر، الى هذه العناصر العوامل الاجتماعية والنفسية[٢٠].

تتناول دراسة السكان الزيادة العددية والجنسية الناجمة عن الزيادة الطبيعية والهجرة، وكذلك الكثافة والتوزيعات السكانية. أمّا البيئة، فتتناول الموقع والموضع ومظاهر السطح والكوارث الطبيعية والتغيرات الجيولوجية والمناخ والموارد الطبيعية والحياة النباتية والحيوانية، والتي يتحتّم على الانسان التكيّف معها، او تكييفها لضمان بقائه واستمراره وتلبية احتياجاته. ولا بد من درس المستوى التكنولوجي الذي وصل اليه سكان المنطقة، وما يتوفر لديهم من تقنية انتاجية، وما يستعملونه من وسائل مواصلات واتصالات. أمّا المؤسسة الاجتماعية، فهي تعني مجمل العلاقات الاجتماعية من العادات والتقاليد وطرق التعامل التي تربط الفرد، وتحكم علاقاته مع أهله وصحبه وجيرانه وأهل مدينته كفرد، أو ضمن مؤسسة اجتماعية ينتمي اليها مع المؤسسات الاجتماعية الاخرى[٢١].

لقد عملت الظروف الطبيعية، وخاصة توزّع المياه والأراضي الصالحة للزراعة، على تركّز السكان في نوى كثيفة ومتباعدة، تفصل بينها مراكز استقرار مخلخلة. وقد عملت الظروف الاجتماعية والسياسية السائدة على تنويع الانتاج الاقتصادي لسكان المراكز المدينية القائمة. وقد دفع هذا التركّز السكاني السكان الى انشاء مراكز لتبادل المنتجات، وهو ما يطلق عليه السوق الرئيس. والمدن الفلسطينية، في سعيها المستمر الى البحث عن مصادر لاستمرارها وعن وظائف جديدة لسكانها، ظهرت فيها المؤسسات الدينية والمراكز الادارية والتعليمية والاقتصادية والمؤسسات الاجتماعية، وعمل قسم من سكانها في الدفاع عن مدنهم، واقاليمها، ولم تختلف المدن الفلسطينية فيما بينها كثيراً.

وتميّزت المدن الفلسطينية الأولى بأنها كانت ذات كثافة سكانية مرتفعة، مقارنة بغيرها من المدن[٢٢]. وكانت تبنى في مناطق يمكن الدفاع عنها، يحيط بها سور، وتبدو قلعة حصينة، وتؤدي وظيفة ادارية لسكانها، ولاقليمها المجاور، مثال على ذلك عكا[٢٣] وأريحا[٢٤] ونابلس، الخ. وغالباً ما كانت المدينة تقام في وسط زراعي غني، وعلى طريق القوافل التجارية. وقد ظهرت فيها، كذلك، المؤسسات العامة، كالكنائس والأديرة والمساجد والمدارس.

فقد كانت المباني، في مدينة أريحا على سبيل المثال، تتألف من غرفة أو غرفتين صغيرتين. وكان بلاط المنزل مصنوعاً من الطين والكلس، وسقفه من القصب المغطى بالطين. وكان يحيط بها سور، يحيط به خندق حفر في الصخر[٢٥]. وكانت للسور أبراج مرتفعة. أمّا شوارع المدن القديمة، فكانت عبارة عن أزقّة ضيّقة متعرّجة، وكان بعضها مسقوفاً، أو معقوداً.

تتوسط المدينة ساحة واسعة تشبه السوق، يتبادل السكان فيها منتجاتهم. وفي وسط المدينة غالباً ما يقع قصر الحاكم. أمّا المنازل، فكانت مربّعة صغيرة غير منتظمة وغير متينة، تتألف، عادة، من طبقة واحدة. تختلف منازل الفقراء عن منازل الأغنياء. فقد كانت منازل الفقراء، في الغالب، بسيطة، تقام خارج السور، وتبنى من حجارة غير منحوتة، أو من اللبن. أمّا توزّع السكان في داخل المدينة، فكان أصحاب المهنة الواحدة يقيمون في حي خاص يسمى باسم مهنتهم. ففي مدينة عكا، مثلاً، وجدت أحياء خاصة بالمهاجرين تحمل اسمهم، مثل حي أبناء البندقية، وحي جنوه، وحي أبناء